غرام

للكاتب الروسي انطون تشيكوف

بقلم الاديب السيد جورج سليستي

حفلت المائدة بالطلي الممتع من الأحاديث ، كما حفلت باللذ الشهى من أصناف الطعام ، وأندر المدعوون إنداراً لذيذاً عذباً ، فلقد شاقهم جميعاً أن يفتنوا فى أحاديثهم ففعلوا ما شاء لهم ظرفهم وأدبهم كأنما كان واحدهم يسعى ليبذ نده فى طلاوة القول وحلاوة النكتة ، فأتوا بالبديع المستطرف من المُلَح ، وجاءوا بالسائغ المستحب من النوادر ؛ فرنّت الضحكات بريشة ناعمة تنبىء سامعها بما شمل مرسليها من سرور ، واستحوذ عليهم من مَرَح ، وظلوا كذلك ردحاً من الزمن غير يسير يتطارحون روائع الطُرَف حتى أطلّ عليهم « نيجانور » لشأن من شئون الخدمة ، فاذا « باليوكين » يغير الحديث لدى مرآه ويبدل مجرى القول ، ويتخذ من هذا النادل موضوعاً لما يضطرم فى نفسه من ميول وأهواء ، وإذا به يقص على مدعويه أن لنيجانور هذا قصة غرام رائعة ، وإن الفاتنة « بلاجيا » كانت ولم تزل صَبّةً به مغرمة ، وكان ولم يزل هائماً بها كلِفاً ؛ وأبدى تعجبه كيف تتعشق فتاة على حسن مونق وقدٍ رشيق كبلاجيا شاباً ليس من جمال الخلق وحسن الخُلُق فى كثير ولا قليل كنيجانور ، لأنه أبداً باسر الوجه كالح الأسارير ، ذو عينين صغيرتين وقسمات لا وسامة فيها ولا انسجام ، ولأنه سكير قلما يصحو من نشوة الصهباء أو ينجو من سورة الخمر ، ولأنه فظ الطبع غليظه كثيراً ما ينهال على حبيبته بالضرب كلما أغضبته فى قول أو أحنقته فى عمل ، ويكيل لها الشتائم لكل بادرة منها لا تروقه ويقذعها بالسباب ما شاء له خلقه السيىء وطبعه الوحشى فتنفر منه وتبكى ، ولكن ما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تعود إليه ناسية ما لقيته من عَنْته وفظاظته ، وتغمره بحبها وحنانها كأنه لم يجترح فى حقها إثماً ولم يلصق بها إهانة ، وترقه قبلاتها الحرى كأنه لم يسىء إليها قط ولم يؤذها ، وكأنما لم يبدر منه إلا كل ما يحببه اليها ويغريها به

وتساءل « اليوكين » عن كنه هذا الحب غير المألوف ، وعن مدى اللذة النفسانية فى هذا الهوى الغريب ، وقال إنه لا يلومها لأنها لا تحب رجلا أقرب إلى مزاجها وطباعها وأدنى إلى تفهم نفسيتها وعقليتها من ذلك السكير الغرّ ، فان لها كما للناس ذوقاً فى الحب ليس من المنطق ولا الحكمة فى شىء أن تؤاخذ عليه وتلام من أجله ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، كما يقولون ، ولكنه يحاول أن يدرك مقدار السعادة الشخصية فى مثل هذا الهوى الغريب الفذ ،

ويود لو يستطيع أن يوفق إلى حلّ ما فى الحب من طلاسم ، وإلى سَبْر غوره وكشف النقاب عن معمياته لا سيما والحب لم تذكر عنه حتى الآن إلا حقيقة مفردة لا جدل فيها ولا خلاف عليها وهي أنه « عظيم » وكل ماعدا ذلك مما كتب عنه ، أو قيل فيه قابل للجدل والأخذ والرد وللمناقشات الطويلة المرهقة ، وليس إلا مقدمات للغز لا يزال مغلقاً ولسر لم يبرح غامضاً ، وإن البيان الذى يظهر مطابقاً لحالة لا يتفق وعشراً سواها ، وإنه من الخير أن تبحث كل حالة من حالات الحب على حدة ، مستقلة تمام الاستقلال عن أخواتها ، فالتخصيص وحده — كما يقول الأطباء — يؤخذ به ويؤبه له ، لا التعميم

— « بالصواب نطقت » قال الأستاذ بوركين:

— أجل ! هذا هو الحق الصراح يا صديق ، فنحن الروسيين جد مولعين بالألغاز والأحاجى ، أو بالأحرى يستهوينا الغامض المبهم فنحوم حوله فقط ؛ أما أن نكتشف جوهره ونبلغ لبابه فأمر لسنا من طلابه وليس لنا به غاية ولا مأرب ، وكتابنا رعاهم الله وحرسهم يجعلون الحب ما شاء لهم ذوقهم الشعرى الأنيق ويحيطونه بهالة من الروعة والجلال ويوشونه كالربيع بالورد المفوّف والأرج المعطار والبلبل الغريد

إننا لا نفهم الحب كما يجب أن نفهمه ، أو لا نحاول أن ندركه كما يتحتم علينا أن نفعل ، ورجالنا يحسبون أن الحب هو الزواج ، فاذا أحببت غادة فعليك أن تطلب يدها لتبنى بها ، ونساؤنا يقدرن الحب بمقدار الهدايا ، فعلى قدر هداياك ، يكون حبك وهواك

وإنى لا أزال أذكر يوم كنت طالباً فى موسكو . إننى أحببت أو خُيّل إلى أنى أحببت سيدة فاتنة لطيفة دقيقة الحس رقيقة الشعور كانت كلما احتبستها بين ذراعى تسألنى عن الهدية التى سأقدمها إليها فى آخر الأسبوع

إننا معشر الروسيين والحق يقال لا نفتأ نتساءل كلما أحببنا : أرفيع حبنا أم وضيع ؛ روحاني أم شهوانى ؟ وإلى أين يؤدى بنا هذا الحب يا ترى ؟ وهل يليق بنا أن نمعن فيه أم نقف عند حدنا خوف التورط فيما لا تحمد عقباه ؟

وأنا أقول من غير مواربة ولا مداجاة : إننى لن أسأل نفسى هذه الأسئلة الباردة بعد اليوم . قد أكون مخطئاً فى نظريتى هذه إلا أننى لا ولن أستبدل بها سواها ؛ وقد يكون الخير كل الخير فى التروّى قبل أن يطوّح المرء بنفسه فى حب ، إلا أننى أعلم العلم اليقين أن هذا التروى يُفقدُه لذةَ الروح ومتعة النفس ويرمض القلب ويشقيه

إنى أعرف هذه الأمور حق المعرفة وأدركها حق الإدراك لأنى بلوتُها بنفسى وخبرتها

ولمعت عيناه وتألق محياه كأنما غمرته سورة علوية من البشر والسرور ، وظهر للرائين بأجمل وضع وأفتن صورة ، وشاعت على ثغره الجميل بسمة وادعة جميلة

وتراءى كأنه يريد أن يتكلم عن ذكرى ، عن أمرٍ مضى وله فى نفسه أثر وبقيا ، كأنه يودّ أن يقص قصة من أقاصيص الشباب الناشئ ، قصة هوى مكبوت . والأعزبون الذين يسكنون وحدهم عندهم دائماً فى قرارة نفوسهم أشياء هم أبداً على استعداد للتحدث عنها من تلقاء ذواتهم ، والمقاهى فى المدن ملتقى الأعزبين يؤمونها لتزجية الوقت بأحاديثهم ، وأنى تبصر أعزبين معاً فقل إنهما يتسارّان عن هوى ويتحادثان عن حبّ

كانت السماء تتراءى من خلال زجاج النوافذ مربدة الأديم ، والأشجار مخضّلة الأفنان من رذاذ المطر الذى وكف منذ حين ، والسحاب الأدكن تحدوه الريح كما يحدو الراعى سائمته ، وكان الطقسُ بارداً قراً فى حين كانت قاعة المائدة دافئة والراحة المضمونة فيها تغرى بالبقاء ، إما للتحدث أو للاصغاء

وتنحنح البوكين ، ورطّب شفتيه بطرف لسانه وانطلق فى حديثه يقول :

« لا أزال أيها الأعزاء منذ أمدٍ بعيد أسكن فى هـذه الأرباض وأدير بنفسى أعمال استثمار أراضينا فيها ، فقد عزّ علىّ كثيراً لدن تخرّجت من الجامعة أن أجد جلّ أراضينا مرهونة وأن أرى أبى غارقاً فى ديونه لكثرة ما تكبّد من مصاريف فى سبيل تثقيفى فى خير جامعات موسكو ، فعوّلتُ على ألا أهجر الأرض حتى أفى ما عليه من ديون

ولما كنت أعلم أن ريع الأرض ضئيل وأنى لن أوفّق إلى مبتغاى مالم أبذل كل مافى وسعى من قدرة ، رحتُ أستغلّ الأرقاء والعبيد فى هذا السبيل الشاقّ ، والزراعة كما لايخفى عنكم تستلزم بذل الجهود وتستدعى إفراغ القوى ، فلم أدع فى القرية ولا فى القرى المجاورة رجلاً سابخاً[1] إلا استدعيته للعمل عندى ، أو امرأة فارغة إلا أتيت بها فحرثوا وزرعوا حتى البور والسباخ . وكان العمل مستمراً ما تنقطع فورته ولا تهدأ حدّته من مطلع الشمس حتى مغربها

وحاولت فى مستهلّ الأمر ألا أهجر الكتب وأن أثابر على مطالعة أمهات الصحف والمجلات ظناً منى أنى أستطيع أن أجمع بين عناء العمل وبين لذة الثقافة فإذا برأيى يخيب ، وإذا بى بعد بضعة أسابيع أتخلّى عن سكنى فى الطابق العلوى الأنيق الترتيب والرياش وأهبط إلى الطابق الأسفل أنام وأقوم فيه لا عن تبذّل ولكن عن ونى . ولم ألبث أن تعودت أن أرقد كالفلاحين حيث يتفق لى أن أفعل ، فى العَجَلة أو على الهشيم أو فى كوخ حارس الغابات لشدّة ما كان ينتابنى من تعبٍ يرهق القوى ويضنى الجسم

وبقيتُ كذلك أنصبّ على العمل انصباباً من غير تراخٍ ولا توان حتى قيّض الله لى مايرفّه عنى بعض الترفيه إذ عيّنتُ قاضياً شرفياً لمحكمة الولاية الصلحية ، وأصبح لى ما ينتزعنى من إدارة أعمالى الزراعية ولو إلى حين ، وبات من المحتم علىّ أن أذهب كلما دعت الحاجة إلى المحكمة فى المدينة فأسام فى أعمال القضاة . وهكذا عدتُ إلى شئ من سابق العهد السرىّ وحياة الترف والنعماء ، وأصبح لى كثير من المعارف والأصحاب من سراة البلد ووجهائه يستقبلوننى لدى مجيئى إلى المدينة بكل بشاشة وترحاب

إلا أن أحبّ العلاقات الودية إلى نفسى وألطفها عندى كانت تلك التى توثقت عراها بينى وبين نائب رئيس المحكمة السيد « لوجا نوفتش » ؛ وما إخالُ أن بينكم من يجهله ، فهو رجل رصين جذاب ، كريم النفس ، طيب القلب إلى حدٍّ بعيد

وإنى لأذكر حين دعانى للمرة الأولى لتناول الطعام على مائدته بعد جلسة طويلة مسّنا بعدها الجهد والوَصَب فقبلت الدعوة شاكراً وذهبتُ

(١) رجل سابخ : فارغ لاعمل عنده والسابخ من الأرض مالم يحرث

أنا وهو إلى منزله وتعرفت هناك بالسيدة قرينته « أنّا اليكسيفنا » ، وهى غادة فى مستهلّ العشرين من عمرها ما إن رأيتها حتى شعرتُ بجاذبٍ خفيّ يدنينى منها ويحبّبها إلىّ

أنا لا أستطيع اليوم أيها الأعزاء ، وقد مضى دهرٌ من الزمن طويل على هذه الحادثة ، أن أقول لكم على التدقيق ماذا وجدت فى السيدة « أنّا » حتى أعجبت بها الإعجاب كله وحتى نالت من نفسى من النظرة الأولى المكانة العظمى وتبوّأت من قلبي المنزل الأسمى ، ولكن كل شئ كان لى واضحاً جلياً حين كنا على المائدة معاً وحين كنت أتناول الغداء وأرمقها بين الفينة والفينة من طرف خفيّ بنظرات ما أدرى والله كيف أنعتها ، وكل ما أستطيع الآن أن أحدّده لكم منها هو أنى رأيتها فتيّة تجمع إلى الحسن الساحر سرعة الخاطر ، وإلى خفة الروح وحز الفؤاد حياء المحصنات وخَفَر العذارى . وشعرت فوراً أنها شخص أنيس قريب إلى قلبي ، كأنى أعرفها منذ نعومة أظفارها أيام كانت طفلة مرحة تملأ الفضاء ضحكاتها وأناشيدها ، أو كأن رسمها الكريم مطبوع فى ذهنى منذ زمن بعيد ، أو كأن هذا المحيا الطلق وهاتين العينين الساجيتين وهذا الجسم البديع مما ألِفه نظرى وأحبه قلبي قبل ذلك اليوم

وقد كنت وأنا جالس إلى المائدة ما أزال تائر النفس هائج الأعصاب لنقمتى على الحكم الجائر الذى أصدره رئيس المحكمة على أربعة من اليهود اتهموا بتأليف عصابة تقطع الطرق وتعيث فساداً ، ورحت من تأثرى وانفعالى أسرد تفاصيل المحاكمة على السيدة « أنا » وأبين لها الخطأ الفادح الذى وقع فيه القاضى بإدانة أولئك المتهمين إدانة لا تتفق والعدالة فى شىء ، فكانت تصغى إلى حديثى بإعجاب وتهز رأسها الصغير الجميل وتسأل زوجها متعجبة دهشة :

— وكيف جرى ذلك إذن يا « ديمترى » ؟ !

وديمترى لوجانوفتش كان رجلاً زمّيتاً رزيناً يعتقد كل الاعتقاد أن البت فى القضايا لا يكون على المائدة ولا في حديث خاص ، وأن ذلاقة اللسان يجب ألا تبرىء مذنباً وتجرم بريئاً ، وأن الحكم يجب أن يكون صارماً مهما كان نوع الذنب ليكون المحكوم عليه عبرة لسواه ، وليرهب الناس القانون ويحترموا الشرائع

وقال لى رداً على سؤال قرينته بلهجة ملؤها الرزانة والجد : « لسنا يا صديقى من أصحاب الفتن ولا من مثيرى القلاقل فحسبك أننا لن نعتقل ولن يحكم علينا »

ولما رآنى على أهبة الإجابة رفع يمناه بكل هدوء وقال : « أرجو منك يا عزيزى أن تترك هذه الأحاديث لفرصة أخرى أكثر ملاءمة من هذه ؛ وإنى سأتفق وإياك على رأى واحد فيما بعد . أما الآن فكل واشرب ، فالأكل والشراب على قدر المحبة كما يقول العامة وهم فى قولهم جد مصيبين ، أليس كذلك يا « أنا » ؟

فأحنت « أنا » رأسها وقالت : « بلى يا عزيزى » وإنى الآن أستطيع أن أقول لكم أيها الأعزاء إن هذين الزوجين كانا سعيدين هانئين على أتم ألفة وأشمل وفاق ؛ وإنهما كانا متفاهمين كل التفاهم لا يتحاجان فى أمر ولا يعترض أحدهما على رأى الآخر ، وإن فعل فبكثير من اللطف والحنان والأدب وكانت الاشارة أو الغمزة من أحدهما كافية لإفهام الآخر مراده .

وبعد الغداء عزفا معاً على البيان فكان توقيعهما عليه لطيفاً مشجياً ، وأنشدت هي أغنية رقيقة عذبة حركت بهـا مكامن الاحساسات من نفسي ، ولم يلبث أن أغطش الليـل فقمت مودعاً شاكراً لهما لطفهما وحسن ضيافتهما ، وعدت إلى منزلي . وكان ذلك في أول فصل الربيع المراح

ومضت الأشهر تباعاً ، ولم تدع لي مشاغلي الكثيرة فرصة واحدة لأهبط المدينة ، ولكن ذكرى المرأة الفتية الشقراء الوسيمة الوجه الفاتنة القسمات لم تبرح خاطري قط ، وطيفها الحبيب لم يحل عن ناظري

وفي أخريات الخريف مثلت في المدينة إحدى المسرحيات الرائعة لمشروع خيري ، وكان أن دخلت مقصورة الحاكم ، ولشد ما خفق قلبي لدن رأيت « أنا اليكسيفنا » ، وشعرت من جديد بضغط قوي على صدري لا سبيل إلى دفعه كان مأتاه إحساسي بأثر الجمال البليغ في نفسي الساهمة المغرورة ، فحييتُ ، وجلست قرب « أنا » مأخوذاً بسحر عينيها الحالمتين ، ولقلبي وجيب دونه وجيب الفؤاد المروّع

أجل ! لقد جلست قربها أنظر إلى المسرح والممثلين فلا أرى هذا ولا هؤلاء إلا أطيافاً وأشباحاً ، فقد كان فكري شريداً بمنأى عن التمثيل وهوانه محصوراً كله في هذه التي رحت أخالسها النظر من حين إلى حين ، والتي كنت كلما احتك كتفها عرضاً أشعر بغمرة اللذات وفيض الهناءات ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة استحالت جميعاً امرأة فاتنة شقراء هي هـذه التي أسعد بالجلوس حيالها أتملى من روعة حسنها الضحيان

وقالت لي لما انتهت الرواية وقمنا معاً نتخطر في على مهل :

— أكنت مريضاً ؟

فأجبتها أن وعكة ألمت بي فبرحت بجسمي وأني برئت منها أو كدت فقالت :

— أراك سقيما شاحب اللون ذابلا في حين أنك كنت في الربيع مرحاً طروباً ، وكنت حين شرفتنا بتناول الغداء على مائدتنا ممتلئاً فتنة وسحراً ، وكنت بأحاديثك ملهما تفتن في القول وتتصرف به على هواك ببيان عذب كان له الوقع الجميل في نفسي . وأعترف لك الآن أنك استملتني اليك بروعة أحاديثك وشعرت بميـل نحوك وعطف ودي ما حنت ضلوعي على مثله لمخلوق سواك ، ولا أدري لماذا تذكرتك كثيراً في الصيف المنصرم ؟ ولا لماذا كان طيفك يمثُل أغلب الأحايين أمام عينيّ ؟ واليوم وأنا قادمة إلى المسرح كانت نفسي تحدثني بلقائك ؛ وهأنذي الآن ألقاك ، ولكن على غير ما كنت أود ، كمداً محزوناً . فقلت : « أكنت تنتظرين لقائي إذن ... يا أنا ... ؟ »

وكانت تلك هي المرة الأولى التي لفظتُ فيها اسمها الكريم من غير لقب ، فرفعت إليّ عينيها الساجيتين بجلال ، ولما التقى النظران أطرقتْ حياء ، وضرّج الخفر خدّيها الناضرين الناعمين بحمرة الورد

ولم نلبث أن افترقنا على أمل اللقاء القريب . أجل . لقد افترقنا ، ولكن فيمن كنتُ أفتكر وأنا أسير إلى المنزل لأقضي ليلتي فيه ؟ وخيال مَن كان ملازمي آناء ليلتي تلك ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذي راود أجفاني حتى الصباح ؟ وعند مَن أودعت روحي وقلبي ومشاعري جميعاً ؟ ! الجواب واحد

على هذه الأسئلة كلها أيها الأعزاء ، هو : « أنا » نعم أيها الرفاق، إنها « أنا » لا سواها ، فأنا هي التي أذكت في روحي جذوة مضطرمة لا ينطفئ سعيرها ؛ وهي التي أرهفت بحسنها الرفيع وصوتها الساحر إحساسي وشعوري ، وهي وحدها التي حركت في قلبي الخلي عواطف الحب

وما انتصف النهار حتى كانت قدماي تقودانني إلى منزلها كأن قوة خفية تدفع بي إليه ، وما أعلنت الخادم نبأ قدومي حتى هرع لوجانوفتش إليّ يستقبلني بما فطر عليه من لطف وإيناس ، وهشّ بوجهي وبش ، وقال لي إن زوجته حدّثته عن مرآي ليلة البارحة ، وإنه كان يعلل نفسه بقدومي إليه ، وإنه كان سيعتب علي كثيراً لو حرمته زيارتي ، فتحرك لساني بشكره ، وأما ذهني فقد ماج واضطرب ، وراحت الأفكار تتقاذفني بتياراتها وتصطرع في رأسي قوية عنيفة ؛ أأكون سافل الأخلاق منحطها فأتخذ صداقة زميلي ووده وسيلة لحب غير مشروع ؟ أيظهر لي هذا الأدب الجم ، وهذا اللطف المتناهي ، وهذا الإخاء الخالص ، فأصبو إلى امرأته وأحوّل قلبها عنه ولها منه طفلة رضيعة هي أحوج ما تكون إلى عطف أمها وحنانها ؟ أوَليس حبي لهذه الزوجة الأم إغواء وإثماً ؟ أأندفع وراء عاطفتي الجامحة اندفاعاً فيه كثير من التهور والجنون والضلال وأنا الذي تؤثر عنه الرزانة والتعقّل وبعد النظر ؟ وبكلمة موجزة : أأخون صديقي في شريكة حياته ووالدة ابنته ؟ !

أجل . كانت هذه الأفكار وأمثالها تصطرع في خاطري اصطراعاً عنيفاً عند ما سمعت صوتاً حنوناً حسبته لرقته وعذوبته منبعثاً عن أوتار تنقرها ريشة عازف مغنٍ [1] ؛ صوتاً ناعماً انتزعني من غمرة الخواطر ولجة الآراء ، وانتشلني من وخز الضمير وتبكيته ، وألقاني أمامها هي ليبهرني جمالها الرفيع ، وتغويني أنوثتها الفذّة ، وتسكرني نبرات صوتها المرنان في العبارات الترحيبية المنمّقة التي انفرجت عنها شفتاها الرقيقتان المغريتان وهي تتقدم نحوي بخطى موقعة توقيعاً

ولم نلبث أن ثمنا إلى المائدة ، وبعد تناول الغداء عزف ديمتري على البيان قطعة موسيقية أو قطعتين ، ثم أنشدت هي أنشودة غرام حملتني بها بعذوبة الغناء ورخامته ورقة المعنى وروعته إلى ملأ غير هذا الملأ تحف به الهناءات والمتع ، وتلاعبت بعواطفي ما شاء لها الفن الرفيع والصوت البديع ، ودارت بيننا بعد ذلك أحاديث شتى تناولنا فيها مختلف الشؤون الثقافية كالموسيقى والأدب والفلسفة والدين والعلوم، وشربنا خلال الحديث الشاي مراراً ، ولم نفق من غمرته إلا على صوت الطفلة وهي تنشج باكية معولة والحاضنة تناغيها وتداعبها لعلها تسكت ، فنهضت « أنا » وقمت على إثرها مودّعاً ، وكان الليل قد أوشك أن ينتصف

وأمسيت بعد ذلك كثير التردد على آل « لوجانوفتش » لا أهبط البلد إلا وأقضي جل أوقاتي عندهم ؛ وبات يشوقهم مرآي كما يشوقني مرآهم ؛ وأصبحت أغشى منزلهم ساعة أشاء كأني فرد من أفراد الأسرة دون أن يستأذن لي عليهم بالدخول ؛ ولم تلبث حياتي أن أصبحت حنيناً دائماً وشوقاً مستمرًّا ، وبت لا أستسيغ العيش ولا أستطيب الحياة إلا في بيتهم ، أو إن شئتم فقولوا إلا حيالها

(١) اللفظة الصحيحة لكلمة فنان الشائعة على أقلام الكتاب

هى ؛ وكثيراً ما كنت أدخل دارهم فلا أرى فيها إلا الحاضنة والخادم فأستلقى على الأريكة فى الثوىّ أطالع فى صحيفة أو أقرأ فى كتاب ، فإن مللت من القراءة حنوت على الطفلة أهدهدها تارة وأناغيها طوراً ، حتى إذا حان ميعاد عودة « أنّا » من السوق هرعت إلى الباب أنتظرها على عتبته ، فما إن تقبل مثقلة الذراعين بما تكون قد ابتاعته من أدوات ولوازم ولُعَب ، حتى أتقدم إليها أروّح عنها بحمل أشيائها جميعاً كأنى غلام يدأب على خدمة سيدته بكل تيه وفخر

وبات الزوجان يقلقان علىّ إذا أطلتُ عنهما غيابى كأنما اتصلت أسباب حياتى بأسباب حياتهما ، وبت أنا لا أستروح نسيم السعادة إلا بغشيانى منزلهما وترددى عليهما ، ولم يكن من شىء يحول دون رغبتى فى ذلك إلا وعكة تلم بى أو مرض يعروني . ولقد وفدت مرة بعد غياب طال أمده فدخلت الدار وجلستُ على إحدى أرائك الثوىّ ساهماً محزوناً ، فما هى إلا بضع دقائق حتى أقبلت « أنّا » فى مباذلها وصاحت لدن رأتنى بلهفة الجزعة الملتاعة :

— أهذا أنت ؟! لماذا حبست عنا قدومك كل هذه المدة ؟ ولماذا حرمتنا من أنسك هذا الأمد الطويل ؟ أأصابك مكروه ؟

لقد كانت نظراتها الوادعة المتألقة بطهر الحب ، ويداها العاجيتان الممدودتان إلىّ ، ورداؤها المنزلى البسيط الأنيق وشعرها المغدودن الناعم ، وصوتها ذو الجرس الحنون ، ومشيتها الموزونة الخطى ، وكل ما فيها يؤثر فىّ تأثيراً عجيباً ويثير فى حنايا ضلوعى عواطفى المكبوتة الكظيمة

وجلست حيالها أرمقها بنظرات ملؤها الحب وترمقنى بمثلها ، وتحدثنا عن شتى الأمور ، وطرقنا مختلف الموضوعات إلا موضوع حبنا فلم ينطق لنا به لسان ولم نلم به لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولقد كنا سعيدين السعادة كلها هانئين فوق مدى الظن . ولما أقبل زوجها سُرَّ كثيراً بمرآى ، ورحنا معاً نزجى الوقت بالحديث ونسرّى عنا بالعزف على البيانو حيناً وبالإنشاد حيناً آخر

أنا لم أعرف بعد فى حياتى يا سادة رجلاً أطهر قلباً وأصفى نية وأوفى ولاء من « ديمترى لوجانوفتش » فقد كان لا يشك فى امرأته قط كأنه كان واثقاً من طهارة نفسها وعفتها ولا يرتاب بى على كثرة ما كان يأتى فيرانى فى منزله ، وكان هو وقرينته يفكران فى أمرى أكثر من تفكيرى فيه ويشكران علىّ هذه الحياة القلقة المضطربة التى أحياها من غير شكوى ولا تبرم ، فى قرية لا متعة فيها ولا راحة لمن كان فى مثل ثقافتى ؛ وكان يعز عليهما أن أبذل شبابى كادحاً جاهداً فى العمل المرهق ولا يتبقى لدىّ من إيراد المواسم إلا النزر اليسير من المال أنفقه على شؤونى الخاصة بكثير من التقتير خشية نفاذه قبل الأوان

وكان يتراءى لهما أنى أتألم وأنى ما كنت أتكلم أو أحسو الشراب إلا لأموّه على نفسى وأنفّس عنها بعض ما بها من شجن وغمّ . ولقد كنت أشعر بنظراتهما الفاحصة حتى فى ساعات سرورى وانشراحى كأنهما كانا يودّان أن يستطلعا بها مكنونات قلبى ويستكشفا ضميري . وكان يؤلمهما حقاً أن يرياني سادراً فى التفكير البائس ، وكثيراً ما كانا يعرضان علىّ المال عند ما كانا يدريان أن علىّ قسطاً مستحقاً من الدين ، ويلحان علىّ بوجوب

تقبل مساعدتهما المادية لى إلا أننى كنت أشكر لهما عواطفهما الرقيقة بكثير من الأدب واللطف ، وآبى أن أستدين منهما بارة واحدة مع أنى كثيراً ما كنت فى أمسّ الحاجة إلى المال . وكنت أوثر أن أستدين من المرابين على أن أظهر أمامهما بمظهر الوضيع المهان

ودارت الأيام دورتها ، وأصبحت «أنا» أمًّا لولدين كالربيع طلاقة وسنا ، ولدين مرحين غرديين كبلبلين ، انطبعت فيهما ما فيها من نجابة وذكاء ، ورونق وبهاء ، ولدين كانا فخر أبيهما ، وعنوان بهجته ونبع مسرّته ، إلا أنهما لم يكونا كذلك لأمهما التى كانت ترى فيهما ذبولاً لآمالها وتصويحاً لأمانيها

لقد كانت تعطف عليهما وتحبهما ، ولكن عطفاً مشوباً بالكدر وحباً ممزوجاً بالكآبة والحزن ، لأنها كانت تشعر فى أعماقها أن كل عام يزيد فى نموّهما وحيويتهما ينقص من قوتها وحيويتها هى ، وإنهما كلما تقدم بهما العمر نحو قمة الصبا والشباب انحدر بها إلى هاوية الكبر والهرَم ، وأصبحت غير قمينة بالتقدير ولا جديرة بالإعجاب والحب

لقد كان هذا الخاطر يمضها ويرمضها ، ولم أكن بحاجة لتصرح لي به ، فحركاتها وتصرفاتها ومسحة الشجن التى علت قسماتها كانت كلها ناطقة به ؛ ولكنها كانت على خطأ واضح وضلال مبين ، فشحوبها الساهم جاءها فتنة على فتنة وسحراً على سحر ، وكونها أمًّا لم يحل دون إعجابى بها بل على النقيض زاد فى حبى لها وتعلق بها

لقد أحببتها حباً عميقاً هادئاً لا نزوة عاطفة فيه ولا جماح نفس ، وأحبتني هى كذلك حباً شريفاً طاهراً . لقد نزهت حبي عن المفاسد والأهواء ، فكنت أضن بهذا الحب العذرى الرفيع ، هذا الحب النفسانى العالى أن يسفّ وأن ينحط من رفعته إلى حضيض المهانة والابتذال . وكنت أربأ بنفسى أن تهوى إلى الدرك الوضيع الشائن ، وأنزهها عن ارتكاب الإثم الموبق ، فما حاولت على كثرة تردّدى على منزلها واجتماعاتى الطويلة بها أن أقبلها ، أو أرتشف رحيق الهوى العذرى من شفتيها ، لأنى كنت أعدّ حتى تقبيلها مسًّا بولائى لزوجها وحطاً من قيمة الصداقة البريئة الخالصة التى ربطت بيننا ، وامتهاناً للأخاء الذى وحّد بين قلبي وقلبه

وليس معنى هذا يا أعزائى أنى صنو الملائكة الأطهار وأن صدري لا تختلج فيه عاطفة ثائرة ولا تخفق فى حناياه نزوة جامحة ، لا ! فقد كانت تجيش بصدري نوازع شتى ولكنى كنت أكبتها وأخمد حدتها . وكان يجول فى خاطري بعض الأحايين أن هذه الخطة النقية التى أتبعها فى حب هذه المخلوقة الساحرة لم تكن مُثلى ، وأنها ليست إلا من صنع الخيال الخاطئ ، وأن رعى العهود وحفظ الوعود واحترام الصداقة وتقديس الأخوة ليس إلا أوهاماً فى أوهام ، وأن الشرف والعفاف والنزاهة والتجرد والشهامة والإباء ليست إلا أسماء لغير مسميات لا وجود لها إلا فى بطون الكتب وعقول المتزمتين المخبولين ، واصطلاحات لا معنى لها إلا فى عقول هؤلاء وأمثالهم من المأفونين أولى النظريات التى يستحيل تطبيقها على البشر بوجه من الوجوه ؛ ولكنى كنت لا ألبث أن أزجر نفسى عن مثل هذه الفكر وأقول إنها خاطئة أوحاها إلى الشيطان وزينها لى الهوى

وهكذا يا أعزائى رحت أكلف بها من غير

أمل وأهيم بها دون رجاء . فكنا نجتمع الساعات الطوال فنمزح كثيراً ونصمت كثيراً كذلك ، وكنت أنظر إليها نظرات الوله ، وتنظر إلى نظرات التيم ، ويحاول أحدنا أن يبوح للآخر بحبه ، ويبثه شكاة قلبه ؛ غير أنه يعود إلى نفسه فيؤثر الصمت ويفضل السكوت . وأى حاجة بنا للقول وكل ما بنا ينطق بالحب ويهتف بالهوى ؟ وأى جدوى للتصريح وكلانا يدرك حق الادراك ما يعتلج فى نفس رفيقه من وجد لاعج وجوى مستعر ؟

وإن الصمت فى مثل هذه المواقف لأبلغ من النطق ، والسكوت خير من الكلام . ولقد كنا سعيدين بالكلام عندما كنا نتكلم جدّاً أو مزاحاً ، وهانئين بالصمت عندما كنا نطلق لأخيلتنا العنان ذاهلين ممرورين تائهين فى عالم الرؤى والأحلام

كنت أفكر وأنا جالس حيالها فى ظلم القدر وقسوة القضاء ؛ أفكر فى حبي لها وحبها لى هذا الحب الناعم الساجى ، أفكر فى زوجها الكهل وفتوتها اليانعة ، أفكر فى كيف أن الأقدار شاءت أن يصادفها هو لا أنا ، وكيف ألقتها فى سبيله لا فى سبيلى ؛ وكنت أحياناً أشتطّ فى تأملاتى ويذهب بي خيالى كل مذهب ، فيخطر لى أن أنتزعها من أحضان زوجها وولديها وأفرّ بها ضارباً بصداقة زوجها وبالشرف عرض الحائط ؛ غير أنى لا ألبث أن أعود إلى عقلى الرصين وأثوب إلى هداى فأعزف عن هذا الرأى الفاسد الأخطل ، وأقول فى نفسى إن هذا لو تمّ لجاء منتهى القسوة وغاية الظلم . وما إخالُ أننى فظّ إلى هذا الحد فأحطم سعادة عائلة يجلنى فيها الصغير والكبير الإجلال كله ، ويثق بى جميع أفرادها ثقة عمياء كبرى . ثم إلى أين استطيع أن أنأى بها ؟ ! لو أنى ثريّ موسر أسيح فى أقطار المعمور وأجوب عواصم العالم ، أو لو أنى زعيم فذّ فى بلادى تعبدنى الجماهير ، أو لو كنت عالماً كبيراً أو مغنياً خطيراً أو كاتباً نحريراً ، إذن ليسر الأمر وهان ، أما أن انتقل بها من حياة عادية لأخرى شبيهة بها أو أحطّ منها فما أرفضه وآباه الإباء كله ؛ فالى أين المآل لو قدّر الله لحبنا أمداً ولسعادتنا أجلاً ؟ : وماذا يكون مصيرها هى يا ترى لو ألمّ بى مرض عضال أقعدنى عن العمل وجعلني طريح الفراش ، أو وافانى الأجل المحتوم فمت ؟ :

كنت أفكر فى هذا وأنا جالس إليها ، وأحسب أنها كانت تفكر فيه مثلي ، وأن خواطرها لم تكن إلا هذه أو ما يقرب منها ، وإخالُ أنها كانت تفكر فى زوجها الذى لم يسىء إليها قط ، فى ولديها فلذتى كبدها ، فى أمها التى كانت تعبدها وتحب صهرها كابنها الحبيب .

وأمر آخر كان يرمضها على ما أظن ويعضّ منها الروح : أيكون حبها مسعدى يا ترى ؟ أم إنه يبليني بنكبات لا أول لها ولا آخر فيزيد حياتى تعقيداً وجدّي عثوراً ؟ ! وكان يتراءى لها عدا ذلك أنها فقدت الكثير من نشاطها بعد أن أصبحت أمّاً لولدين ، وأنها لم تعد كفءاً لى لتستهلّ معى حياة جديدة تتطلب جهداً وافراً ؛ وكثيراً ما كانت تقول لزوجها أمامى إن علىّ أن أبنى بفتاة ذات مزايا كثيرة تكون لى نعم العون فى شؤونى كافة ، ولكنها كانت تتبع فوراً عبارتها هذه بقولها له إن من الصعوبة بمكان أن أعثر فى المدينة بأسرها على فتاة كالتى تبتغيها وتتمناها لى

وكان يطيب لها أن تخرج معى إلى المتنزهات

العامة غير آبهة لألسن الوشاة ولا مكترثة لأقوال المتمامين ، فنستمتع معاً بالنسيم السجاح والفيء السجسج ، ونتملى من منظر الورد وعبق الزهر ؛ ويلذّ لها أن أصحبها إلى الملهى لحضور إحدى الروايات المسرحية الممتعة ، فنذهب سيراً على الأقدام ونجلس فى المقصورة كتفاً إلى كتف وجنباً إلى جنب ، فإن بدا فى المسرحية موقف غرامى رائع التفتت إلي بعينين نصف مطبقتين ، ومحيا وادع كسته العاطفة كل روعتها وسحرها ، وثغر فاتن ترتقص عليه مغريات المنى ، وتمتمت :

« البوكين ! » فأحنو عليها وصوتها الرخيم يرنّ فى مسمعى ، وحبها يفور فى أضلعى ، وأهمس بحب : « أنا ! » وأهمّ بتقبيلها فما إن يكاد يصل ثغرى إلى ثغرها حتى أسحب رأسى وأتراجع عنها أظماً ما أكون إلى رشفة من بين ثناياها ، وأحبس القبلة فى فمى فما تريم ، فترد هى رأسها الصغير المحبوب ، وتطلق من صدرها المجهود زفرة لاهبة حرّى ولا تنبس . وأحسب أن تلك اللحظات القلائل هى خير ما كنت أشعر فيه بالسعادة والنعيم ، وأحس فيها بأن « أنا » لى وحدى ، وأن واحدنا لا يطيق العيش قصياً عن رفيقه يتقلى على جمر البعد ونار النوى ! ، ولكن واأسفاه ، ينتهى التمثيل وتخرج من الندىّ فيذهب كل إلى طيته كغريبين لا صلة للواحد بالآخر ولا سبب يمت به إليه

ومرّت الأيام بعضها فى إثر بعض ، وأصبحت « أنا » سوداوية الطبع ضيقة الخلق تتبرم بالحياة وتشكو منها وتحزن لغير داع وتغضب لغير سبب ، وباتت ترى فى الكائنات نقصاً مشوّهاً كرهت الوجود من أجله وضاقت به ؛ لا ، بل تعدّى الأمر الى بيئتها وأسرتها فاجتوت منزلها وأمست لا تطيق أن ترى زوجها ولا ولديها الحبيبين ، وغدت تتردد على أمها وأختها كثيراً وتقضى عندهما ردحاً من النهار طويلاً ثم تنكفئ عائدة إلى منزلها كسيرة الخاطر محزونة النفس

وتغيرت اجتماعاتنا فيما تغير من عاداتها ، فأمست ساعات اللقاء سلسلة من الصمت الطويل والتأمل العميق ، وأضحت تظهر لي بمظهر الندّ أمام الناس كلما ضمنى وإياها مجلس أو نادٍ . فان تناظرتُ وأحداً من الناس انحازت إليه ضدّي ؛ وإن تحدّثتُ عن أمر ناقضتهُ ولم توافق عليه ؛ وإن سقط شيء من يدي عرضاً قالت لى ببرودة ساخرة : « أهنئك » ؛ وان صحبتها إلى الملهى وحدث أن نسيت أن أستحضر معى المنظار قالت بفتور : « كنت أعلم انك ستنساه ! »

وصمت « البوكين » لحظة نظر فيها من خلال النافذة إلى السماء التى انقشعت عن أديمها بعض السحب وأن أنّة « خافتة » ثم استطرد يقول :

« كل شيء في الوجود ياسادة إلى نفاد ، ولا شيء فى حياتنا — لسوء الطالع أو لحسنه — إلا ينتهي إما عاجلاً أو آجلاً . ووقت انفصالى عن « أنا » أو بالأحرى انفصالها عنى قد دنا وحان ؛ فقد عين « لوجانوفتش » رئيساً لحكومة مجاورة لبولونيا وكان عليه أن يبيع كل ما عنده من أثاث ورياش وخيول وحتى منزله الريفى الجميل . وعلى ذكر المنزل الريفي هذا أقول إننا عند ما كنا لآخر مرة فيه وقفت « أنا » حيالى تتأمل معى الحديقة الغناء التي تساوره ، والحقول المنبسطة أمامها بخضرتها السندسية ونبتها المخضل ؛ وكان كلانا منقبض النفس مكمد الأسارير يشيع تلك المرائى بنظرات حزينة ويودعها لآخر مرة وداعاً لا لقاء

بعده . ولما التفت إليها رأيت في محجريها دمعتين تترأرآن : (١)

وساءت صحتها قبل الرحيل الى مقر زوجها الجديد ، فاستشار لها الأطباء فأثبتوا أنها مصابة بضعف الأعصاب والقوى جميعاً ونصحوا لها بالاستشفاء فى « الكريمه » وقرروا أن تعالج فى ذلك المصح الفاتن بالهواء الرخىّ والماء المعدنى والمناخ السري ، حتى إذا تمّ لها الشفاء وقيض لها البرء لحقت بزوجها إلى مسكنه العتيد

ورافقت أنا إلى المحطة حيث اجتمع لوداعها جم غفير من علية القوم وسراة البلد ، وقرع الجرس مؤذناً بتحرك القطار بعد قليل ، فودعت زوجها وولديها والناس جميعاً ، ولما لم يبق إلا ثوان قلائل لسيره قفزت إلى العربة لأضع رزمة لها كانت قد نسيتها ولأودّعها الوداع الأخير وحدى . ولما التقت نظراتنا خذلتنا قوانا ، ووهى جلدنا ، فاحتضنتها بين ذراعى لأول مرة فى حياتى فألقت رأسها الصغير على صدرى الخفاق ، ولم تتمالك نفسها من البكاء فانهمرت من مقلتيها الدموع غزيرة حرّى

وفى تلك الغمرة الساحرة حنوت أرتشف من مقلتيها الدمع وأكفكف بشفتى العبرات الواكفة وألثمها فى ثمها وخديها وعنقها وشعرها وكتفيها وأنى وقع عليها ثغري لثمات كلها هوى وجوى ، وشعرت فى تلك اللحظات بحزن عميق فى نفسى لم يسبق لى أن شعرت بمثله فى ساعة من ساعات حياتى ، وانقبضت انقباضاً لا عهد لى بمثله من قبل ، وأدركت فى تلك الدقيقة فقط إبان الأسى المحرق الذى اجتاح كيانى كله أن أيامنا التى قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات قد ذهبت هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وأن هذا الذى حال بين حبها وبينى من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراء ولغواً ؛ وأننى أخطأت خطأ فادحاً فى عدم انصياعى إلى عاطفتى وهواى ؛ وأدركت فى تلك اللحظة فقط أن على المرء عند مايحب أن يرتفع فوق العرف والشرائع ، وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل ، وأن يتخلى عن التفكير فى غده ومستقبله ، وألا يبحث فى أمور السعادة والشقاء ، والرذيلة والفضيلة ، والشرف والتهتك ، أو يضيع أوقاته سدى ؛ وليندفع وراء حبه إن شاء متعة نفسه وراحة قلبه

وقبلتها للمرة الأخيرة قبلات حارة أودعتها كل مافى فؤادى من حنين وحب وصافحتها مودعاً إياها إلى الأبد . وكان القطار قد تحرك فجلست فى العربة المجاورة أبكى حتى بلغ بنا المحطة الأولى فنزلت وعدت منها إلى قريتى ماشياً

وأطلت الشمس من وراء الغيوم الدكناء التى كانت تحجبها وأرسلت أشعتها المنعشة من خلال النوافذ فقام « بوركين » و « إيفان » إلى الشرفة يتأملان جمال الطبيعة الساحر ويحدقان فى ترعة الماء وقد لمعت صفحتها كالمرآة الوضيئة تحت شعاع الشمس ، ورثيا فى نفسيهما لمضيفهما الذى حدثهما بسذاجة وإخلاص عن حبه الشهيد ، وأشفقا على هذا الرجل النابغ الأروع الذي يقضى أيامه فى هذه الحقول والبساتين دون أن يكترث بالعلم أو بالأدب أو بأى شىء سواه يدخل السرور إلى قلبه الحزين الباكى ، الذي يحن إلى الماضى البعيد حنيناً يصوّح شبابه الوريف ويؤيس نفسه ، ويتلفت كثيراً بلوعة وحرقة إلى خيال تلك المرأة الفاتنة التى قضى بقربها خير سنى صباه دون أن ينال منها حتى فى آخر عهده بها إلا قبلات معدودات هي كلّ ذخيرته من هواه

(١) رأرأ الدمع دار في المحور ولم يسقط